تقنية الارتداد
في رواية امرأة القارورة لسليم مطر

م.م. كريم عجيل الهاشمي

جامعة واسط- كلية التربية

توطئة

يقدم لنا العراقي سليم مطر منجزه الأدبي الروائي (امرأة القارورة) بشكل مائل إلى التعقيد والابتعاد عن المألوف الأمر الذي أفضى بسرده أن يكون متصفا بالإثارة والتشويق، من خلال انهماك رواة هذه الرواية وسرد أحداثها بشكل يخدم اتجاهاتهم الفكرية والشخصية، فكان الزمن عنصرا مطواعا في إعانة هولاء الرواة على تقديم ما يرغبون البوح به من خلال سردهم ، فجعلوا الزمن التاريخي يتشكل حسب طبيعة أحداثهم مجتازة حدود الزمن الطبيعي وتقسيماته المعروفة إلى أزمان مغايرة لطبيعتها، فتتثال تلك الأحداث من زمنيتها التي ظلت حبيستها لآلاف السنين ليقدمها رواة هذه الرواية بعدما استثمروا مطاوعة الزمن تلك عبر تقنيات الزمن المعروفة فكان الارتداد بالزمن الأساس الذي بنيت عليه أحداث هذه الرواية فامتطى رواتها صهوة الارتداد ليخوضوا في سوح لازمان الغابرة ويقدموها مجسدة على الواح معاصرة

Abstract

The Iraqi Salim Matar introduces for us his literary work

(Flask`s woman) in a way tend to complexity and move away from the familiar, which has led his recite to be described as excitation and suspense, through the preoccupation of the narrators of this novel and listed its event in a way servers their intellectual and personality views, the time was helpful element in subsidy these narrators to deliver

jail for thousands of years and the narratorsinvested time through the known techniques of time , echo – time was the basis which the events of this novel depend on it , and the narrators submit it on contemporary board what they wnt to reveal through their recite , historical time is shaped by the nature of their event passing through limits of the natural time and its known subdivisions times contrary to their nature , those events come from their time which remained .

بنية الزمن السردي:

يتميز الزمن السردي عن غيره من الأزمنة المستعملة في أي منجز روائي بكونه يتصف بأنه زمن تخيلي، فهو من دون شك مقيد بخطية الكتابة؛ لذلك فهو لا يكترث إلى التنظيم الحقيقي المتماشي مع المنطق في تقديمه الأحداث وسردها، فكل كاتب يختلف عن غيره في عرضه للأحداث بمعنى انه يتأثر بأسلوب الكاتب نفسه، فهو زمن أسلوبي ليس الا[١] ، فالكاتب يتلاعب بالأحداث من خلال تقنياته اللغوية تلاعبا يحسبه ملائما ومناسبا مع طريقة بناء القصة وفنياتها، والتلاعب الكاتب هذا نابع عن قصد وتخطيط معد له سلفا وليس تلاعبا اعتباطيا غير مدروس، فمن غير المنطقي أن يقوم الكاتب بتقديمه الأحداث التي تتضمنها الرواية بشكل يشوه كونها فنا قصصيا، بان تكون متسلسلة تسلسلا زمنيا محكما، لذا نجده يقدم واحدا على آخر بشكل يضمن كون ما تقدم فنا قصصيا((وأياً كانت الطريقة التي يستعملها الروائي ، فإنه إذا وجّه إليها كل تفكيره أدرك أنه سيواجه عند كل خطوة ضرورة اللجوء إلى نوع من الانتقاء ، فليس ثمة طريقة تتيح له تجنبه ولا أداة لغوية أو بنائية تمكنه من الاستغناء عنه)) [٢]. ومهارة الكاتب وإتقانه لحرفته في الكتابة الروائية والقصصية محكوم بترتيب الأحداث وسردها و اولوية ذكرها، فهو جزء من تشكيل الرواية تشكيلا فنيا، الا ان هنالك مشكلات كثيرة تحول من دون تمكن الروائي من تقديم ما يرويه أو يكتبه متسلسلا، ولعل اللغة واحدة من بين هذه المشكلات، فاللغة تتكون من جمل وفقرات تنظم الحوادث التي يمر بها، بشكل نسق خطي منطقي عبر هذه اللغة صعب جدا، لان هذا الخط يقطع ويلتوي مع ظهور كل شخصية ضمن الرواية[٣] ان توظيف عنصر الزمن في النص الأدبي بمختلف أجناسه يكشف عن

مستوى من التوظيف لهذه البنية معاكسة لزمنها النصي الخارجي، الذي يتصف بكونه زمنا متصاعداً باستمرار من دون ان توقف أو انحراف في مساره، وهو بهذه الصفة يختلف تماما عن نظيره الآخر اعني ـ الزمن الداخلي، الذي اتصف بالتقطع وعدم الصعود باتجاه محدد، فهو النوع من الزمن يتوقف أحياناً ويتقدم أحيانا أخرى، فالزمن هذا حركته مرتبطة بحركة الشخصيات وبطبيعة الأحداث التي تقدمها هذه الشخصيات[٤] في منجز الكاتب الروائي .

ومن الملاحظ ان اغلب الاستهلالات السردية الروائية لم نجدها تعني بداية الزمن الحكائي، فهذا النوع من الزمن متفق عليه على انه زمن متعدد؛ وكتاب الرواية فيه يعمدون إلى انتخاب لحظة معينة يقتطعها فكرهم ويجدونها ملائمة لان تكون نقطة الاستشراف لزمن السرد التي تعد فيما بعد حاضر القصة، التي قد يتخلى عنها مع ظهور أي شخصية تحتم عليه تركها لتقديم شيء عنها ولكن هذا التخلي محكوم بتقنيات متعددة ومنها الارتداد والاستباق، فالارتداد يعد نوعا من الاستذكار السردي يمكن الكاتب من خلال العودة للماضي والاطلاع ((على أحداث سابقة عن النقطة التي وصلتها القصة ... إلى الاحتفال بالماضي واستدعائه وتوظيفه بنائيا))[٥]، والزمن في النصوص الروائية ينقسم على نوعين : خارجي وداخلي وقد حاول الدكتور سمر روحي معالجتهما في منجزه النقدي بناء الرواية، فعنده الزمن الخارجي يقاس بوحداته المعروفة يوم شهر سنة ... وداخلي وهو يعد زمنا ذاتيا أو نفسيا وليس له مقياس محدد ولكن الناقد قادر على تحديد سرعته بواسطة اللغة التي تعبر عن الحياة الداخلية للأشخاص[٦] وهذا الزمن تناولته سيزا احمد قاسم وقسمته على نوعين هما :[٧]

١.الزمن الطبيعي الذي له خاصية موضوعية من خواص الطبيعة .

٢. الزمن النفسي : الذي يرتبط بالشخصية لا بالزمن إذ ان الذات أخذت محل الصدارة ففقدت الزمن معناه الموضعي فأصبح منسوجا من خيوط الحياة .

ومن خلال دراسة بنية الزمن سنحاول ان نتناول تقنية الارتداد بشكل مفصل لبروزها بشكل واضح في رواية امرأة القارورة .

تقنية الارتداد

تعد تقنية الارتداد من بين التقنيات السردية الأكثر حضورا على مستوى النصوص الروائية من خلالها يلجأ الراوي إلى التحايل على النسق التسلسلي للزمن في الأعمال الروائية والقصصية، فيغير زمن السرد من خلال هذه التقنية التي تأخذ على عاتقها رسم ملامح الشخصيات وعالمها الداخلي وتملا الفجوات الناقصة في مسيرة

الحدث الروائي لتعاود مسيرتها الخطية التي ارادها الروائي مجددا[٨] وتعرف هذه التقنية بانها (النقطة التي يتوقف عندها الراوي عن السرد ليعود لنقطة زمنية سابقة في الزمن إلى النقطة الأولى كي يروي الأحداث في تلك اللحظة الزمنية ليتركها بعد ذلك كي يعود إلى النقطة الأولى، وقد أصطلح عليه النقاد بـ (الارتداد Anals) أو الفلاش باك (Flash– Back) وهو مصطلح سينمائي حديث يراد به عودة الراوي أو الشخصية إلى الماضي البعيد أو القريب)[٩].

ويعرف الارتداد أيضا بانه ((تقنية زمنية تعني سرد حوادث وأقوال وأعمال وقعت في الماضي الروائي ومعيار الماضي هنا هو الحاضر الروائي الذي انطلق السرد منه))[١٠] وتأتي أهمية هذه التقنية في كونها تتمركز حول الشخصية أو الذات بشكل عام وهي تعادل وفقا للمصطلح النفسي بما يسمى الاستبطان أو التأمل الداخلي[١١] والعمل على هذه التقنية وتوظيفها في النصوص الروائية يختلف من واحد لآخر والنجاح في توظيفها يدل على المهارة الفنية خصوصا إذا كانت السعة كبيرة للاسترجاع أو الارتداد ((فالمتلقي إذا عاد من غير ان يشعر بالانقطاع دل على مهارته الفنية في دمج الاسترجاع بالحاضر وضمن في الوقت نفسه استمرار القراءة))[١٢] .واعتمادا على مصطلحي المدى والسعة المستعملين في السرد ، قسم (جيرار جنيت) الاسترجاع أو الارتداد في العمل الروائي على(١٣) :

(خارجي) : وهو ، استرجاع له وظيفته وحيدة غايتها إكمال الحكاية الأولى عن طريق تنوير القارئ بخصوص هذه (السابقة).

(داخلي) : يتخذ خطّاً قصصياً مختلفاً عن مضمون الحكاية الأولى، فهي تتناول إما شخصية يتم إدخالها حديثا ويريد السارد إضاءة سوابقها، أو شخصية غابت عن الأنظار منذ بعض الوقت، ويجب استعادة ماضيها قريب العهد.

(مختلط): و يكون مداه سابقاً لبداية الحكاية ونقطة سعة سابقة لها.

ويوكد (جنيت) أهمية التمييز بين فئتين مهمتين أساسيتين من الاسترجاعات الداخلية.

الأولى: وهي التي يسميها بالاسترجاعات التكميلية أو (الإحالات) وتنظيم المقاطع الاستعادية التي تأتي لسد بعد فوات الأوان فجوة سابقة في الحكاية.

الثانية: وهي ما يسميها بالاسترجاعات التكرارية أو (التذكيرات)، ويشير إلى ((ان الحكاية تعود في هذا النمط على أعقابها جهاراً، وأحيانا صراحا. ولا يمكن لهذه الاسترجاعات أن تبلغ أبعاداً نصية واسعة جدا إلا نادراً، بل تكون تلميحات من الحكاية إلى ماضيها الخاص))[١٤]. وتمكن جنيت

من التميز بين (المدى والسعة) فالمدى يقصد به تلك المسافة الزمنية التي تفصل بين اللحظة الحاضرة التي يبدأ فيها الاختلاف الزمني، اي انها اللحظة التي تتوقف فيها الحكاية لتخلي المكان للمفارقة الزمنية في حين ان السعة عنده تعني المدة التي تغطيها المفارقة الزمنية[١٥] وقد تنوعت أساليب الروائيين وطرقهم في الإشارة إلى الاسترجاع وأكثر هذه الأساليب استعمالا الفعل (تذكر) ومشتقاته، وتتميز مقاطع الاسترجاع عادة بان توضع بين بقوسين،أو تغيير صيغة الطباعة بمداد اسود وفي اغلب الأحيان يهمل الروائيون بعض الإشارة إلى الاسترجاع، ويمزج بعضهم الاسترجاع بالحاضر في مقطع واحد فيغدو من الصعب التمييز بين الحاضر والحادث المسترجع[١٦].

وينقسم الارتداد الخارجي على:

١- الارتداد الخارجي الجزئي : وهو نوع من أنواع هذه التقنية يلجأ إليه الروائي لتقديم جزء من ماضي الشخصية لتكون سبيلا للقارئ بواسطته يمكنه التعرف على جزء من خصائص تجاربها الحياتية التي عاشتها وتفاعلت معها. وقد وجدنا هذا النوع من الارتداد في امرأة القارورة من خلال محطات سردية كانت نابعة من إرتدادات الذاكرة وتشبهها الماضي، فكانت على مستويات مختلفة ومتفاوتة تبعا لموقعيها من الذاكرة ، فكانت شخصية الشيخ

٢- (أبو يحيى) أحد الذين كان لهم تأثير في مساعدة (ادم) ، عندما كان هائما في الصحراء أثناء محاولة هروبه الأولى من الجيش الذي لم يؤمن به يوما فقد جاء ظهور هذه الشخصية بشكل مفاجئ ضمن سير الأحداث، إذ تجسد دوره في تقديم المساعدة والإنقاذ لكن الراوي يعود بالزمن السردي إلى الوراء ليقدم لنا شيئاً عن ماضي هذه الشخصية

٣- ((الان، وانا في (جنيف) يمكنني ان اجزم بيقين ان شيخ القافلة ذاك، رغم بساطة مظهره ، كان ذا هيبة ملوك ووقار انبياء . تلوح في ذاكرتي الان صورة مشوشة لذلك الشيخ الذي تناديه عشيرته (ابو يحيى). كان كمراة احتفظت باثار اماكن وعصور واقوام انعكست فيها صورهم . انه ساحر خرافي وحكيم متفقه وبدوي متمرس . عندما اصغى الى حكايتي هز راسه محدقا في خطوط رمال رسمتها اصابعي قال لي اشياء كثيرة لم اصدقها الا بعد ان عشت احداثها . اخبرني بجميع ماسيحصل لي في سنوات السبع القادمة محاولات فراري وانتقالي بان كشف لي شيئا اعظم من هذا حكاية امرأة القارورة التي ساتعرف عليها بعد سبع اعوام في جنيف))[١٧]. من الواضح الراوي تمكن الراوي من خلال هذا المقطع الارتدادي ان يطلع المتلقي على ماضي هذه الشخصية التي ظهرت في الحكي بشكل مفاجئ .

وكان تركيز هذا الارتداد منصبا على شكل أبو يحيى الذي شبهه بوقار الأنبياء فوجه هذا الشيخ يحمل من كل العصور اثرا ليدل على أصالة هذا الشيخ ولاسيما وان الرواية قد نبت تقريبا على هذه التقنية اعني الارتداد الذي ميز بين نوعين من البشر.ويبدو ان الاسترجاع هذا كان موفقا لان الروائي يستعمل هذا الأسلوب من الاسترجاع عندما يعود إلى شخصيات ظهرت بإيجاز في الافتتاحية من روايته ولم يتسع المقام لعرض خلفيتها أو تقديمها.[١٨]

ومن الارتدادات الجزئية الخارجية الأخرى التي لجأ الروائي إلى إشراكها في سرده الارتدادي الذي من خلاله ادخل شخصية (سجينة ادم وصديقه) إلى السرد كما في المقطع الآتي من الفصل الثالث في الرواية حاضر القارورة ((رحنا ببطء حذر نرفع بصرنا لنتابع القطرات تلك . كانت قبضة ادم تشتد كاننا مقبلان على مشاهدة جني راينا اول قدمين بالكاد تلامسان الارض كانتا عاريتين والاصابع ترتجف بين حين واخر كانها تجاهد للاستناد اكثر على الارض .... امراة شابة معلقة من معصميها الجريحين بقيد مشدود إلى قضبان نافذة في اعلى الجدار سوف لن ننسى إلى الابد ذلك الوجه الفاتن المعذب وتلك العينين المكتظتين باسئلة مبهمة ستظل إلى الابد صورتها منطبعة عميقا في ذاكرتنا وستظل وجها يراودنا في وجوه جميع نساء حياتنا))[١٩] ان من يكمل قراءة الرواية يكتشف ان الروائي عمد إلى الارتداد في زمن الرواية لتقديم شي عن ماضي هذه الشخصية فمن خلال ظهورها بالسرد تمكن المتلقي معرفة مستوى العذابات التي كان يعيشها سكان هذه البلد فحكوماته لا تميز بين جنس افراده ذكورا كانوا ام اناثا فعلى رغم الانسيابية والشفافية في تصوير هذه الشخصية بواسطة الارتداد الا انها لم تسلم من بطش هذه الحكومة ، فهذا الارتداد مكن المتلقي من الاطلاع على جزء مهم من حياة ابطال هذه الرواية والمدة الزمنية التي صورتها .

وحينما اراد الراوي ان يبين أصل ادم وأبيه ارتد من خلال اللجوء إلى تقديم شخصية صديق والد ادم التي ظهرت بالسرد بشكل مفاجيء

((الان فقط تكشف لآدم سر ذلك الحديث الغريب الذي جرى يوم كان ابوه يعاني سكرات الموت ، أتذكر يوم زارنا رجل يشبه إلى حد بعيد والد ادم لم يكن احد منا يعرفه حتى والدة ادم لم تتعرف عليه ، قال انه صديق قديم يعود أصله إلى أصل الأب نفسه وقد هجر الاهوار معه وشاركه في جميع حروبه وتجاربه ، لكننا لم نسمع به من قبل قلنا لعل هناك سببا ما جعل لاب لا يذكره في حياته عن ماضيه كان شيخا قد تجاوز السبعين وقد ارتسمت على وجهه

الاسمر المحروق بالشمس وعلى كفيه اثار جروح قديمة كان يرتدي ثياب اهل الجنوب التقليدية عقالا وكوفية))[٢٠] فهذا الارتداد في بنية الزمن للرواية كان مقصودا لان شخصية والد ادم لم يقدمها لنا السرد للمتلقي بشكل يجعله يدركها الا ان الراوي عمد إلى سد هذه الثغرة بواسطة الارتداد وتصوير شخصية صديق والد ادم الذي قال عنه كان يشبه والد ادم إلى حد بعيد فتوضيح صفات هذه الشخصية كان كفيلا بتوضيح ما كان خافيا على المتلقي من شخصية والد ادم .

٤- الارتداد الخارجي التكميلي:

في هذا النوع من انواع تنقية الارتداد يعود بنا الراوي إلى الخلف – أكثر من مرة – ليعطينا بعض المعلومات عن ماضي شخصية ما ترد ضمن ما يرويه من أحداث روائية، وكل مقطع من المقاطع الارتدادية في هذا النوع يعد متمماً للمقطع الذي قبله، بحيث يصبح شكل المقاطع كشكل الحلقات المتصلة بعضها ببعض، مما يساعدنا في نهاية المطاف على تكوين صورة واضحة ومتكاملة عن تلك الشخصية. ويظهر انموذج هذا النمط في الفصل الأول (انبعاث سيدة القارورة) حينما يسرد لنا الراوي أحداثا مقطعة المسار بين الحين والآخر ليشكل بكل هذه الأحداث هذه الشخصية التي تصبح واضحة للمتلقي كما في هذا النموذج ((قبل ان يلتقي ادم بحورية قارورته قبل هذا الحادث بأكثر من تسعة أعوام بالضبط في شتاء عام ١٩٧٨ قرر الرحيل عن بلاده ومدينته بغداد كان عمره قد تجاوز العشرين بعامين مثل معظم أبناء جيله كان يعيش وضعا قلقا بسبب الأوضاع السياسية المربكة والعنيفة إضافة إلى فشله في مشاريعه الحياتية وتفاقم خيباته مع النساء ، هذا ما رسخ قناعاته باستحالة تحقيق أحلامه بالحرية والمجد الا خارج الوطن))[٢١] بعد ان يسرد لنا الراوي يعود مرة أخرى في إكماله صفات هذه الشخصية ، إذ يحتاج الكاتب في بعض الأحيان العودة إلى الماضي الخارجي وإعادة بعض الأحداث التي مرت بها الشخصية لتفسيرها تفسيرا جديدا في ضوء المواقف المتغيرة لإضفاء معنى جديد عليها ، فالأحداث بالابتعاد يتغير معناها، فالحاضر يسبغ عليها الوانا جديدة وابعادا مغايرة، والمقارنة بين الزمنين إشارة إلى مسار الزمن[٢٢] ((منذ ان وصلنا إلى جنيف اخنار هو الزواج والاستقرار والعزلة وتكريس كل شيء من اجل المستقبل اتقن اللغة وتعلم ادارة الحاسوبات واشتغل . يحلو له أحيانا ان يهمهم أمامي بعبارة مكرورة : ماض موحش وقاس كالدغل كلما اقتلعته رغما عني ينبت في حديقة حاضري))[٢٣] ثم يأتي بمقطع ثالث يحاول من خلاله ان يكمل ما بدأ من مصفات هذه الشخصية ((لعلي افضح سرا : ان ادم حتى رحيله من الوطن لم يتمكن

من ان يضاجع ولا مرة واحدة طيلة حياته السبب ليس له أية علاقة بقدراته الجنسية انه يعود إلى سبب غامض ومجهول من الصعب التكهن به مرة وحيدة حاول بها حقا ، كانت قبيل هجرتنا . في الصيف بعد الحاح أقنعته ان يرافقني لسفرة إلى البصرة . هناك اصطحبته إلى اطراف المدينة حيث تنتشر بيوت غجر طينية في حي الطرب بعد دقائق من انزوئه مع واحدة ، قفل راجعا إلي وهو يبصق ويلعن . لم يحتمل مشهد عري البغي ، ولم يفعل شيئا . أعاد على مسامعي نظرياته عن جسد طاهر وحب مقدس وان الجنس يجب ان لا يقترن برذيلة مال وقوانين سوق ، وان روحه في هذا الوضع تنفر من فعله وتتقزز من جسده وتجعله خامدا بلا شهوة ولا قدرة بسببه ضاعت تلك السفرة هباءً))[٢٤] ان من يحاول إعادة قراءة هذه المقاطع السردية الثلاث يستطيع ان يشكل صورة واضحة المعالم لهذه الشخصية المحافظة التي تبتعد عن الرذيلة وتسعى لتحقيق طموحاتها التي خططت لها سلفا . وتنبغي الإشارة إلى أنه ((استقلال الحكاية "المضمون" عن السرد "الشكل" لا يعني انفصالهما حكما بل تفاعلهما الوثيق يكون أعظم كلما كان النص الروائي أكثر إدهاشا وجمالا))[٢٥] وهو ما حصل فعلاً في هذه الرواية إذ ان الراوي لم يفصل بين الشكل ومضمونه فكانت ارتداداته استجابة لتساؤل محير ربما يثار في ذهن القارئ بعد قراءته النص بأكمله ، لأن ثمة حدثاً غريباً يقع في نهاية الرواية يمزج بين الاثنين معا.

ومن الملاحظ ومن خلال قراءة هذه الرواية ان الارتدادات فيها اختلفت مقاصدها الجمالية والدلالية التي حققها التنوع في زمن الارتداد ، اذ اتسم بالتباين والتفاوت في طول المدة التي يستغرقها في العودة إلى الماضي لعل ارتداده يكون ردة فعل طبيعية لطبيعة الحياة التي يتحدث عنها في حياة الغرب، ولعل تضييق سعة الارتداد أمر تعمده السارد، إذ كلما يضيق الزمن الروائي يكون فعل الارتداد وشغله اكبر حيزا في الرواية[٢٦] لأنه يدرك ان اتساعه يؤدي إلى سحب المتلقي إلى مواضيع وأحداث جديدة تبعده عن الموضوع الذي يتحدث عنه والذي يركز على إبرازه وتوظيفه لخدمته.

ب- الارتداد الداخلي : هذا النوع من الارتداد يتعلق بالذاكرة فهو يستلزم ترتيب القص في أي رواية ومن خلاله يعالج الكاتب الأحداث المختلفة والمتزامنة والترتيب هذا يتطلب ترك الشخصية والعودة إلى الوراء لمصاحبة الشخصية الثانية[٢٧] فمن خلاله تتمكن الشخصية ان تسرد أحداثا جرت في زمنها وصارت من الماضي في زمنيتها، ومن خلال التذكر ترتد منه بعد ذلك وتسترجع هذه الأحداث التي ستصبح جزء من نسيج الرواية . ولهذا السبب يتطلب من

القارئ ان يكون مستعدا لكل شيء في الرواية مهما كان حجم الاسترجاع ؛ لان الروائيين يعون قيمة الزمن وأهميته فيحاولون ربطها بحقبة زمنية معينة[٢٨] تحفظه ذاكرته لتستعيده في أي لحظة من لحظات السرد الحاضر.

وهذا النوع من الارتداد يكون حسب المستوى الزمني متميزا بفسحة زمنية كبيرة تقع ضمن نسق زمن الحكي، اي انه يكون منصبا في صميم الزمن الحاضر الذي تسير فيه أحداث القصة ، ولهذا النمط أشكال عديدة منها :

الارتداد الداخلي التكميلي : وهو يأتي إما لتبيان طبيعة العلاقة التي تربط بين شخصيتين قصصيتين ، ولم يفسح المجال لهذه العلاقة بالظهور في بداية القص ، فيتم تقديمها في وقت لاحق . أو لزيادة توضيح الحدث الذي سبق لنا الاطلاع عليه . ومثال ذلك نجده في الفصل الأول (انبعاث سيدة القارورة) حينما يحاول الكاتب ان يبين طبيعة العلاقة بين ادم وصديقه الذي يسرد العلاقة بقوله : ((كان يحلو لي ان امزح معه بوصف معضلتنا بأننا كنا كسمكتين بلون واحد هو الأحمر ثم انحدر بنا الزمن إلى نهر ماؤه اصفر وسمكه اصفر انا أحاول البقاء بلوني الأحمر وهو يحاول أن يستحيل إلى الأصفر بينما الواقع يفرض اكتسابنا لونا برتقاليا ينتج من امتزاج الأحمر والأصفر))[٢٩] فصديق ادم يحاول ان يبين ان ادم كشخصية تحاول الانسلاخ من ماضيها واصلها والتطبع بأخلاق وطباع أهل الغرب الذين يعيش معهم ، في حين ان صديق ادم هذا يحاول ان يكون وسطيا في طبيعة حياته فيأخذ حياة عالمه الجديد شريطة ان يبقى غير متنكرا لماضيه ، ثم يمضي صديقه في بيان طبيعة علاقته بآدم وإكمالها بارتداد داخلي تكميلي بقوله: ((لم يرث من تاريخه غير الخوف في طفولته كان يمضي ليالي ارق خوفا من الموت ، أن ينام ولا يستيقظ كان يخاف جهنم بعد ان وصف له أبوه أنواع عذاباتها التي تجعل حتى شعر الأصلع ينبت ويقف ... منذ ذلك اليوم تعرف أحدانا إلى الآخر هكذا منا توأمان في بدن واحد هو عاشق للموت من اجل نسيان بؤس الحياة ولبلوغ الجنة ، وأنا من اجل نسيان الموت كنت اخلق لذة الجنة في لحظات الحياة))[٣٠] بهذا الأسلوب الارتدادي الداخلي تمكن صديق ادم ان يجعل العلاقة واضحة بينة خصوصا وانه جاء في وقت متأخر من الرواية الا ان الكاتب بهذا الأسلوب تمكن من شد المتلقي الذي ظل مشدودا لمعرفة طبيعة هذه العلاقة التي شابها شي من الغموض والإبهام .

وبعد ذلك يستمر الراوي في رواية طبيعة هذه العلاقة وكرهها إلى السلطة وسبب الهروب من البلاد إلى أن يشير في

النهاية إلى بعد هذه الحادثة من الناحية الزمنية عن مستوى السرد الأول للحكاية،

((في أعوام الستينات وفي سن التاسعة اشتغلنا انا وادم في حانوت يجاور مديرية الأمن كنا كل عصر بعد عودتنا من المدرسة نحمل المأكولات وقناني المشروب لنبيعها إلى الموقوفين السياسيين لم نكن نجيب على أسئلتهم ونتحاشى النظر إليهم لان الحراس وأهلنا وصاحب الحانوت اخبرونا بان هولاء مجرمون وكفرة يريدون سفك الدماء وتخريب الدولة))[٣١] فالماضي الذي يشير إليه الراوي هو ماض ليس بعيد جداً يكون بمثابة إشارة تكميلية لكره ادم وصاحبه للسياسة فيكمل ذلك بقوله ((منذ ذلك اليوم بدأت تتحطم فينا معابد ثقتنا وإيماننا بما تعلمناه من معتقدات اهلنا وقومنا ودولتنا كالفيضان اجتاح الشك وقلق الإيمان روحنا وطفق بلا رحمة يزيح عنا ما تعلمناه وما سنتعلمه حتى يوم رحيلنا))[٣٢] فبهذا الارتداد نقل لنا الراوي سبب بغض ادم وصديقه سياسة الدولة القمعية التي كانا يعتقدان ان الدولة بسياستها تحمي أبناءها .

وبه أكمل لنا ما ابتدأ به سرده وسبب هروبه من الحرب وعبر هذا الانفلات من الزمن لم يشعر المتلقي بانقطاع في زمنها الأمر الذي يفضي بها التي التشويه كونها عملا فنيا ((اشد ما يقززني ويدفعني إلى التمرد والهرب ، صورة شاذة كانت ترتسم في مخيلتي في أثناء تفاقم المحنة ان قادة الدولتين يتناكحون فيما بينهم ونحن جحافل الجيوش عبارة عن حيامن معتقة يقذفونها في بعضهم بعضا ننسكب نحن شهداء ملذاتهم وهم يرتعشون شبقا في خطبهم))[٣٣] فالراوي حاول ان يرتد ليوضح طبيعة شخصية ادم وهذا لم يأت بشكل اعتباطي في السرد وانما وجد حاجة ملحة من خلالها وضح سيكولوجية هذه الشخصية وكرهها للحرب وسياسة الدولة عبر التلاعب بتسلسلها الزمني من خلال استعمال حركة من حركاتي الزمن .

ويرتبط الاسترجاع بالذاكرة التي تمثل على مستوى الإنسان الفرد جانباً أصيلا من جوانب شخصيته[٣٤]، فبواسطته تتمكن الشخصية ان تتناول حدثا مضى من الأحداث بتقنية التذكر ثم الارتداد منه بعد ذلك إلى السرد[٣٦]. ولذلك ينبغي على المتلقي توقع المفاجآت والاعترافات، لان كل شخص في القصة يحمل معه شرحاً لماضيه[٣٧]، تحفظه الذاكرة لتستعيده – عند الحاجة – في أي لحظة من لحظات السرد الحاضر.

ولقد كان للارتداد كيفيات مختلفة في رواية امرأة القارورة منها الارتداد العجائبي من غير المألوف، فهذا آدم / احد شخصيات الرواية يرتد بالزمن إلى الوراء ليسترجع أزمنة غابرة يخيّل له أنه عاشها ، أو انه وكان جزءا منها، من خلال الاعتماد على نوع من أنواع

الاسترجاع وعبر كيفية من كيفياته المتمثلة بالجسد المهتز، ففعل الاهتزاز هذا يفسح المجال لان يقدم الروائي أشياء عجائبية خارقة تصيّر من آدم شخصية عجائبية لها القدرة على التناسخ بطرق شتى تسبقه بآلاف السنين ، وان هذا الأسلوب من الاسترجاع بالزمن يصور أزمانا ويختصر أحداثا ، وهذا الأسلوب هو الذي يخلق الدهشة والمتعة الفنية عبر ما يقدم من مفارقة زمنية وهذه التقانة التي يتميز بها كاتب هذه الرواية سليم مطر :((مع اهتزاز جسدينا كنت أحس بجسمي يزداد ثقلاً وينجذب بقوة خفية نحو أعماق هوة كونية سرية ، كأني ذبت إلى سائل تبتلعه حفرة فضائية مركزها جسد (امرأة القارورة) . انحدرت في متاهات أشبه بغيبوبة الساقط في هاوية . كزمن حلم يختصر آلاف الأحداث والصور في بضعة أعشار الثانية ، وكحياة ميكروب لا تتجاوز لحظات وتبدو له أغنى وأطول من حياة الإنسان .. هكذا عشت حياة واحد من أسلافي في خلال الزمن ، كل عام منه يعادل لحظة شهيق وزفير من فحيح (هاجر)))[٣٨]

فضلا عن ذلك احتوت الرواية على استرجاعات عجائبية أخرى تمكن الروائي من تقديمها بأسلوب الحكي المشوق لشخصية امرأة القارورة :((اسمها (هاجر) وكانت تعيش بين شعبها في مملكة قديمة من أرض الجنوب تسمى (أور) في حقبة أعقبت الطوفان الكبير))[٣٩]

ثم يتيم بها عشقا (تموزي) الأمر الذي جعله يبحث عن آلية تفضي به إلى جعل محبوبته خالدة فعثر بعد رحلة شاقة دامت أكثر من سنتين أوكل الحكم فيهما إلى وزيره على ذلك الرجل في جبل صخري احمر صيّرها إلى امرأة تتصف بالخلود الذي يحافظ على شبابها وجمالها الذي تتيم به تموزي لكن خلودها مرتبط بمكانها الذي تعيش فيه وهو (القارورة) .

((رحل الملك بجيش من خيرة فرسانه بعد ان وكل وزره وصديقه إدارة المملكة اصطحب معه معبودته هاجر ومعها كل ما يوفر لها الرغد والراحة ويقيها لهيب البوادي وجفافها ظلوا يجولون ويتوغلون في الأعماق يتصلون بقبائل البدو ويستشيرون النساك وحكماء الصحراء .... كاد يغلبهم الياس بعد عامين من التجوال دون جدوى حتى أتى اليوم والتقوا شيخا))[٤٠]

ثم ما يلبث ان يفاجئنا بأسلوب اخر للارتداد والاستذكار فيقدم لنا سردا استذكاريا من خلال الاعتماد على تقانة التناسخ التي ينتجها فعل الجسد الاهتزازي فيرتد مسترجعا حياة أحد أجداده كأنها حياته التي عاشها حقيقة :((كنت طفلاً مستلقياً جنب أختي ، بين خرق عطنة وفي أحضان عربة خشبية

متهرئة تتمايل بنا بتناغم مع تمايلات أرداف بغال تجرها))[٤١].

وهو بهذا الأسلوب الاستذكاري المرتبط بالجسد المهتز يتمكن من تقديم حياة مختصرة عاشها أصحابها حقيقية لآلاف السنين بصفحات محدودة .

ثم ما يلبث ان يغير من أسلوبه لينتقل إلى تقانة جديدة تسمى الارتعاش،الذي كان معادلا موضوعيا للمزاوجة بين الحلم والقارورة،أنتج أفعالا غرائبية بين تموزي وعشتار كانت معادلا موضوعيا للحضارة والعلم ، لبلاده وأوروبا. ((كنت أنا كذلك استلقي معها ويلتحم جسدي بجسدها وأغور في عالم عتيق تحييه وتخلقه ارتعاشاتنا الراقصة في احتفال الوجود))[٤٢].

ويبدو ان والغور في هذا المقطع من الرواية، استذكار لعالم قديم جدا حاول ان يختصر بهذه الصفحات القليلة، ثم ما يلبث مرة أخرى ليستذكر مستغرقاً حياة جديدة مختلفة :((وجدت نفسي غلاماً أعيش في قرية ضائعة بين أهوار الجنوب . كان أبي تاجر حبوب تقياً يمضي وقته في عبادة أصنام جلبها من (بابل) ، عاصمة قومي البعيدة المرتمية على الفرات))[٤٣].

ثم يسرد استرجاعا زمنيا من خلاله تمكن من ايجاز السرد والوصف عن شخصية تسبقه بآلاف السنين ، شخص يقتل والده المنتمي إلى ذلك العصر والدته ثم أقصاه أبوه وعذبه وامتنع عن تعليمه القراءة والكتابة ثم فرّ ليصبح قرصاناً ، وبعد أن قاموا بتسليب السفن القرطاجية أحب بفتاة قرطاجية كان اسمها (عازار. العذراء) وتطوع في جيش قرطاجة وأصبح جنديا بجيش (آزر بعل) شقيق لـ(هاني بعل) إلى أن انتهى امره بأحد المعارك في أوروبا ولاذ الجيش الذي فيه بالهزيمة ، فانسحب مع قبيلة سلتية ، ثم قام بالزواج من (كارلا) من قبيلة السلتية ورزق منها ولداً وهو (آدم) من ثم انهال الجبل وتناثرت أحجاره لينهي أمر كل القرية ما عداه والقارورة وابنه[٤٤] .

الخاتمة:

اتضح من خلال قراءة رواية امرأة القارورة انها تجنح ببنيتها نحو الزمن فهي قد ببنت على هذه البنية بشكل كبير فضلا عن ميلها إلى الارتداد والميل نحو الماضي والتعلق به فقد توسلت بهذه التقنية من اجل استعادة ذاك الماضي ، كما تتماز هذه الرواية بعدم وضوح الماضي فيها فهو شائك ومعقد تناوله الرواة بالنقل من أطراف زمان رغبوا هم بسردها كان الارتداد فيها آلية مهمة في تغيير نمطية السرد وتحريف في خطيتها القصصية فما قدمته الرواية هو ليس مرجعية حقيقية بل هو تغيير في هذه المرجعية تبعا لأهواء الرواة وذاكرتهم .مكان الاسترجاع في الرواية غالباً لتلبية بواعث جمالية وفنية، وتحقيق مقاصد سردية مثل، ملء الفجوات التي يخلفها السرد وراءه سواء بإعطاء معلومات حول سوابق شخصية جديدة دخلت عالم الرواية، أو باطلاع القارئ على حاضر شخصية اختفت عن مسرح الأحداث ثم عادت للظهور من جديد، ،ولكون الاسترجاع يعد نوعاً من الاتساع النصي يفضي إلى تحقيق غايات جمالية ودلالية، فهو ليس سوى عملية شعورية تفسيرية تعليلية يقترن تحققها باللحظة الحاضرة التي تدفع ذاكرة الإنسان لاستعادة الماضي الشارح والمفسر لها.

الهوامش

(١) بنية النص الروائي ، ابراهيم خليل ، ٩٧

(٢) الزمن والرواية / ٩٠ .

(٣) ينظر : بناء الرواية ، سيزا احمد قاسم ، ٣٧ .

(٤) ينظر : بنية الشكل الروائي ، حسن بحراوي ، ١٠٨ .

(٥) بنية الشكل الروائي ، ١٢١ .

(٦) ينظر : بناء الرواية دراسة بنيوية شكلية ، د. سمر روحي الفيصل ، ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٧) ينظر : بناء الرواية ، سيزا احمد قاسم : ٤٥ ـ ٥٣ .

(٨) ينظر : المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي ، فاضل ثامر ، ٧٦

(٩) ينظر: بناء الرواية: ٤٠.

(١٠) بناء الرواية ، سمر روحي ، ١٦٣ .

(١١) ينظر : موسوعة علم النفس ، ١٩٢ .

(١٢) بناء الرواية ، سمر روحي ، ١٦٤ .

(١٣) ينظر :خطاب الحكاية ، جيرار جنيت ٦١ .

(١٤) خطاب الحكاية : ص٦٤

(١٥) ينظر : خطاب الحكاية ٥٩ .

(١٦) ينظر : بناء الرواية العربية السورية، سمر روحي الفيصل : ١٦٣ـ١٦٤.

(١٧) امراة القارورة ١٢

(١٨) سيزا احمد قاسم ٤١ .

(١٩) امراة القارورة ٦٥

(٢٠) امراة القارورة ٧١.٧٢

(٢١) امرأة القارورة ٢٥

(٢٢) بناء الرواية سيزا احمد قاسم ٤٠.

(٢٣) امرأة القارورة ٢٨

(٢٤) امرأة القارورة ٣٧

(٢٥) ابحاث في النص الروائي ، د. سعيد سويدان ٢١١ .

(٢٦) بناء الرواية ، سيزا احمد قاسم ٤٠ .

(٢٧) بناء الرواية سيزا قاسم ٤١ .

(٢٨) ينظر : بناء الرواية ، ادوين موير ، ١١٥ .

(٢٩) امراة القارورة ٣٠

(٣٠) امراة القارورة ، ٣١

(٣١) امراة القارورة ٦٢

(٣٢) امراة القارورة ٦٢

(٣٣) امراة القارورة ٧

(٣٤) ينظر : اشكال القراءة واليات التاويل، ناصر حامد ابو زيد : ٢٥٤.

(٣٦) ينظر : قضايا الفن القصصي، يوسف نوفل : ١٩٩.

(٣٧) ينظر : بحوث في الرواية الجديدة، ميشال بوتور، ت: فريد انطونيوس: ٩٧.

(٣٨) امرأة القارورة : ص٨١

(٣٩) م ن : ص٤١

(٤٠) امراة القارورة ٤٢ .٤٣

(٤١) م ن : ص٨١

(٤٢) م ن : ص٩٨

(٤٣) م ن : ص٩٨

(٤٤) ينظر : امرأة القارورة : ص ٩٨ . ١١٠

المصادر :

- ابحاث في النص الروائي .د.سعيد سويدان ، مؤسسة الابحاث العربية لبنان بيروت ،ط١ ،١٩٨٦.
- اشكال القراءة واليات التأويل ، ناصر حامد ابو زيد .دار حامد الاردن عمان ٢٠٠٥ .
- بحوث في الرواية الجديدة ،ميشال بوتور ، ت:فريد انطونيوس ،مؤسسة الابحاث لبنان .
- بناء الرواية دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ سيزا احمد قاسم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤.
- بناء الرواية ، ادوين موير ،ترجمة ابراهيم الصريفي ،والدكتور عبد القادر القط ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر والترجمة ،١١٥.
- بناء الرواية دراسة بنيوية شكلية ، د.سمر روحي الفيصل ، دار الثقافة والاعلام ،ط١، ٢٠١٢.
- بنية الشكل الروائي ،حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي،بيروت ط١، ١٩٩٠.
- بنية النص الروائي ،ابراهيم خليل، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط١' ٢٠١٠ .
- خطاب الحكاية ،بحث في المنهج ، جرار جنيت ، ترجمة محمد معتصم واخرون ، المجلس الاعلى الثقافي . ط٢ ، ١٩٩٧.
- رواية امراة القارورة ،سليم مطر، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط٣، ٢٠١٠.
- الزمن والرواية ، ا،ا .مندلاو ، مراجعة احسان عباس ، دار صادر ،بيروت ط١ ، ١٩٩٧
- المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي ، فاضل ثامر ، دار المدى ،ط١ ،٢٠٠٤ .
- موسوعة علم النفس اسعد رزوقي ، مراجعة عبد الله عبد الدايم ، المؤسسة العربية للنشر ، بيروت ،ط٢ ، ١٩٧٩.